

المتنبي وفيكتور هوغو

د. ثائر زين الدين

لو تحدثنا عن أبي الطيب المتنبي ودوره وتأثيره في الحركة الشعرية والنقدية في عصره، لبدا الأمر عادياً ومسلماً به، ولو تناولنا حضوره المتنوع والمتعدد الأشكال في الشعر العربي المعاصر - من إحياء الشخصية وصولاً إلى استلهاها واسترفادها والتعبير بها ضمن تقانات فنية مختلفة - لقبل دارسو وقارئو الأدب المتابعون ما طرحناه، وهذا ما فعلته سابقاً في كتابي "أبو الطيب المتنبي في الشعر العربي المعاصر" عام 1999 وفعله بضعة نقاد بعد ذلك في سوريا والوطن العربي.

لكن لو تحدثنا عن تأثير المتنبي أو حضوره بصورة ما في أدب شاعر وروائي مبدع من أهم كتاب فرنسا في المرحلة الرومانسية هو فيكتور هوغو (1802- 1885) لاستغرب الكثيرون كلامنا وعدوه ضرباً من التعصب القومي.

الرواية الأولى التي كتبها فيكتور هوغو ربيع عام 1821 وهو بعد في الواحدة والعشرين من عمره وحملت عنوان "هان الأيسلندي" ونشرت في طبعها الأولى عام 1823 تشهد بأن فيكتور هوغو قرأ شعر المتنبي وأعجب به وأفاد منه، والحقيقة أن نظرة متقصية إلى تعامل المستشرقين مع شعر أبي الطيب وسيرته تؤكد ما ذهب إليه.

لقد بدأت مسيرة الاهتمام بشعر المتنبي وترجمته إلى اللغات الأوربية منذ عام 1656 حين نشر غوليوس Golius المتوفى عام 1667 قصيدة للرجل وموجزاً عن

سيرة حياته ، وبعد ثلاثين سنة تقريباً ظهر كتاب "المكتبة الشرقية" لبارتلمي دوبلو Barthelmy Dherbelot وضم ترجمة المتنبي ، ثم ظهر كتاب خص بالشاعر حمل عنوان "نماذج من الفن الشعري العربي عند المتنبي" ، وضم "ست عشرة مقطوعة غزلية ومرثيتين بالنص العربي مصحوبة بترجمتها إلى الألمانية" 1 ، وتالت الترجمات ؛ ففي عام 1791 نشر س. ف. غونتر وال S.f.Gunthre Wahl "مجموعة المختارات العربية الجديدة" التي حوت خمس مقطوعات ومرثية ، باللغة العربية ، وعام 1797 ينشر ج. ه. هندلي J.H.Hindley كتاباً مختصراً يضم سيرة أبي الطيب وشيئاً من شعره ، ومدحاً حماسياً لشاعر الكوفة : "إن الكثير من قصائده ذات سمو رائع ، وهي عظيمة جداً" 2.

وينشر دوفال ديتان Duval Destains عام 1813 مرثية المتنبي لأبي شجاع فاتك بالنصين العربي والفرنسي ، ويقدم رأياً نقدياً بالشاعر : "إن أبياته المليئة بالطاقة والحرارة وخطوطه المرسومة بجرأة ، ولمساته الجميلة القوية ، كل هذا وقر له بين المؤلفين العرب مكانة ممتازة ، وبما أنه معتدل في أسلوبه ، فلسنا واجدين عنده ذلك المديح الحقيق المتكلف. إن المتنبي يصور بقوة ، ويمدح بلطافة ، إنه ينشر في شعره الأفكار الأخلاقية.. ولا يخضع لقواعد الذوق السائدة في عصره.. 3"

وسيزداد الاهتمام الغربي بأبي الطيب بدءاً من 1819 ؛ فتكثر بحوث المستشرقين وترجماتهم لشعره.

وعليه فمما لا شك فيه أن فيكتور هوغو الشاعر أولاً وصاحب ديوان "شوقيات" وغيره قد قرأ ما ترجم للمتنبي باللغات التي يعرفها وها هو ذا يستهل فصلين من روايته الأولى بشعر له.

رواية "هان الأيسلندي" 4- التي ترجمها الأستاذ زياد العودة إلى العربية وصدرت عن وزارة الثقافة 2009 - تجري أحداثها في النرويج القرن السابع عشر ، وهي تحكي قصة فارس اسمه أوردنير يتعلق قلبه فتاة تدعى إيتيل ، محتجزة في قصر مونكولم ، مع والدها شوماكير الذي كاد له خصمه المستشار دالفيلد ؛ فاتهم بجرمة ضد الدولة. وستقرر مصير السجينين علبة صغيرة تضم ما يثبت براءة شوماكير ، لكن العلبة المذكورة تقع في يد قاطع طريق دموي هو هان ، وهان مخلوق بهيمي يعيش معتزلاً الناس مع دب ، وقد يتغذى بدم ضحاياه. يسارع الفارس أوردنير إلى البحث

عن هان لإحضار العلبة وتبرئة شوماكير ، ولاسيما أن المؤامرات عليه راحت تشتد. وأخيراً وبعد حوادث ممتعة يتمكن الفارس من إحضار العلبة وأسر هان ، وتبرأ ساحة شوماكير وتعاد إليه القابهِ وممتلكاته ، ويسجن هان ، ثم يضرم في السجن حريقاً هذا هو موجز الرواية بشكل عام.

يستهل فيكتور هوغو الفصل التاسع بستة أبيات من قصيدة المتنبي الشهيرة :
لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال.
ويختار من القصيدة الأبيات التالية :

واللسيوف كما للناس آجالُ	والقاتلُ السيفُ في جسم القتلِ بهِ
وماله بأقاصي الأرض إهمالُ	تُغيرُ عنه على الغاراتِ هيبتهُ
عيرٌ وهيقٌ وخنساءٌ وذيالُ	له من الوحش ما اختارت أسننه
كأن أوقاتها في الطيب آصالُ	تُمسي الضيوفُ مشهاةً بعقوتِه

.....

تقري صوارمه الساعات عبط دم كأئما الساع نزالُ وقَّالُ

والقصيدة كما هو معروف مكتوبة في مدح قائد جيش مصر أبو شجاع فاتك ، وقد أحبه المتنبي لفروسيته وشجاعته ، في زمن كان كافور يحكم فيه مصر ، ومدحه بهذه القصيدة الرائعة التي حملت معانٍ جديدة في بابها والأهم من كل هذا في ذلك مجال - أقصد الكتابة الروائية - هو توظيف الاستهلال بشكلٍ فني. وهذا مانراه في الفصل المذكور ؛ فهو يتحدث عن زيارة الشاب الفارس أوردينر للسجين وابنته الشابة ، وقد علم أن دليل البراءة وقع في يد هان الرهيب ، ومع ذلك يقطع وعداً للكونت السجين شوماكير وابنته أنه سيلاحق هان ويعيد العلبة ، التي تحمل رسائل ووثائق تخرجه من سجنه .

وينطلق الفارس إلى غايته... بعد أن رسم الراوي صورةً جميلةً ومهيبةً له مهدت لها أبيات المتنبي السابقة ؛ فهي أيضاً تصف فارساً شجاعاً يقتحم المخاطر في سبيل غايات نبيلة كما أسلفت !

وهذا يعني أن فيكتور هوغو يعلم تماماً بمن قيلت الأبيات ومناسبتها والملابسات التي أحاطت بها.

نتنقلُ إلى الفصل الرابع والعشرين فنلاحظ أن الروائي استهل الفصل بأربعة مقبوسات آخرها للمتنبى وهو بيتُه الرائع الذي يقول فيه :

ويزيدني غضبُ الأعادي قسوةً ويلمُّ بي عتبُ الصديقِ فاجزُعُ

ثم يأتي الفصل فإذا به يدورُ إلى حدٍ بعيد في فلك هذا البيت ، فمعظم صفحاته هي حوار بين الحاكم لوفان دوكنور والسجين شوماكير ، و كان السجين فيما مضى رئيساً للحاكم يوم كان ضابطاً صغيراً فأحبه وساعده على الترقية...

ولكن سنوات طويلة تفصل الآن بينهما ولذلك لم يتمكن شوماكير من معرفة أن الحاكم الذي يقف أمامه ليس إلا صديق الأمس ، ومع ذلك يعلن أن الحاكم يذكّره بذلك الشخص ويبدأ بالحديث عنه فيمتدحه في حين يذم الحاكم بصورة ما. وهنا يتوزع الزائر بين مشاعر العتب تجاه هذا الصديق السجين الذي لم يتعرف إليه ... ومشاعر الإحباط والحزن جراء الشتائم التي توجه إلى شخصه الآن كحاكم ... ونراه يجزع فعلاً لعتب صديقه القديم هذا من دون أن يجرؤ على التصريح بشخصيته الحقيقية ودفع بعض العتب والظلم عن نفسه.

فيغادره أخيراً من دون أن يبوح بالغاية الحقيقية التي دفعته إلى زيارته والتي أساسها التأكد من ضلوع السجين بمؤامرة حيكت ضد الدولة...

ويقول له وهو يغادر :

- أيها الكونت شوماكير. حافظ باستمرار على التقدير نفسه للوفان دوكنور.

وعليه فإن ما سبق يؤكدُ تأثر كاتب فرنسا الكبير فيكتور هوغو بأبي الطيب المتنبى شأنه شأن عددٍ غير قليل من الأدباء العرب والأجانب ، الذين أتيح لهم أن يقرؤوا شعره وسيرة حياته وهي مسألة يجب أن تثير فضول أسانذتنا من النقاد الذين يتقنون أكثر من لغة ، فتدفعهم إلى البحث في هذا المجال بصورة مستفيضة وهادئة.

الهوامش

- 1- ريجيس بلاشير، أبو الطيب المتنبي، ت: إبراهيم الكيلاني، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001، ص 355.
- 2- نفسه، ص 356.
- 3- نفسه.
- 4- فيكتور هوغو، هان الأيسلندي، ت: زياد العودة، وزارة الثقافة، دمشق 2009.